(٥٨) أبو نصر السراج[١]

ذكر الشيخ أبي نصر السراج رحمه الله:

كان رحمه الله إمامًا مُفتيًا، مُتمكّنًا وحيدًا.

سُمّي طاووس الفقراء، وأوصافُهُ الجميلةُ، ونعوتُهُ الحميدة أكثرُ من أن يجمعها لسانُ القلم، أو يضبطها ترجمانُ العبارة؛ لأنّه كان في الفنون كاملاً، وفي الرياضات والمعاملات والمجاهدات ذا شأنٍ عظيم.

وكان رحمه الله شارحًا لكلمات المشايخ.

وأدرك السريَّ السقطي، وسهلاً التُّستري، وكثيرًا من المشايخ رحمهم الله.

وهو من الطوس، نزلَ بغداد في أوّلِ رمضان، وأقام في الشُّونيزية في مخزنٍ، وسُلّم إليه إمامةُ الفقراء[٢] وصلّى بهم التراويحَ وسائرَ الصلوات، وخادمُهُ يأتي إليه كلَّ ليلةٍ برغيفٍ، فلمّا عيَّدوا، وسافر الشيخ، وجدوا في مخزنِهِ ثلاثين رغيفًا.

نقل أنه كان في ليلةٍ شاتيةٍ[٣] باردة يتكلّم بين أصحابه في المعرفة، والنارُ مشعولةٌ في الكانون، فوردتْ عليه حالةٌ، فدخل في النار، وشرعَ يسجدُ لله تعالى، وتحيّرَ الأصحاب في شأنه، وتفرّقوا من عنده دهشةً وهيبة، ثم رجعوا

---

(١) هو عبد الله بن علي الطوسي، وترجمته في:

كشف المحجوب ٥٦٧، ٥٨٧، العبر ٣/٩، مرآة الجنان ٢/٤٠٨، نفحات الأنس ٤٠٨، شذرات الذهب ٣/٩١، كشف الظنون ١٥٦٢، إيضاح المكنون ٢/٥٥٢، هدية العارفين ١/٤٤٧. وانظر مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق المجلد ٥٧ الجزء الأول صفحة ٣٥.

(٢) في (أ): أمانة الفقراء.

(٣) في (ب): ليلة شتائية.

إليه في الغدِ يظنُّون أنَّه احترقَ، بل صار رمادًا، فدخلوا عليه، فإذا هو قاعدٌ في المحراب، ووجهُهُ متهلّلٌ منوّرٌ كالقمر، قالوا: يا شيخ، كيف الحال؟ أقلُّ ما في الباب أنَّ وجهَكَ ينبغي أن يحترقَ! قال: وهذا ظنُّكم! من أراقَ ماءَ وجهه على هذا الباب، لا يحترقُ وجهُهُ بالنار؛ بل النارُ تهربُ من وجهه.

قال: العشقُ نارٌ تلتهبُ في فؤاد العاشق، فتحرقُ ما سوى محبَّة الحقِّ عز وجل، وتجعله رمادًا.

وقال: الناسُ في الآداب على ثلاث طبقات: أمّا أهلُ الدنيا فأكثرُ آدابهم في الفصاحةِ والبلاغةِ، وحفظِ العلوم وأخبارِ الملوك، وأشعارِ العرب. وأمّا أهلُ الدِّين فأكثرُ آدابهم في رياضةِ النفوس، وتأديبِ الجوارح، وحفظِ الحدود، وتركِ الشهوات. وأمّا أهل الخصوصية فأكثرُ آدابهم في طهارةِ القلوب، ومُراعاةِ الأسرار، والوفاء بالعهود، وحفظِ الوقت، وقلّة الالتفات إلى الخواطر، وحسنِ الأدب في مواقف الطلب، وأوقات الحضور، ومقامات القرب.

﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨] وصلّى الله على سيّدنا محمدٍ وآله وصحبه أجمعين.

* * *